ثريا أدهم

«ذات يوم طلابى صاخب اقتحم طلاب الطليعة الوفدية والطلاب الشيوعيون قاعة الاحتفالات الكبرى بالجامعة، وكنت معهم، هتفنا ضد الملك، انتزعنا صورة الملك المعلقة فى صدر القاعة، ألقيناها أرضا ودسناها بالأقدام، الأمن لم يتحرك لكن طلاب جماعة الإخوان خاضوا ضدنا معركة بالشوم والكرابيج».
ثريا أدهم

وتحكى لى ثريا أدهم فى حوار مطول ذكريات عن طفولتها. ولدت فى ١٩٢٦/٣/٦ لأسرة متعددة الأبناء، وتقول: «كنا ثمانية، ولد وسبع بنات، وأنا كنت رقم ٧ فى الترتيب، أبى كان ناظر مدرسة، وكان متحرر الموقف والنظرة والتربية، كثيرا ما سمعته يقول فى جلساته مع أصدقائه وجيراننا: إذا كان دخلك لا يسمح لك بأن تعلم كل أبنائك فالبنات أولى من الصبيان»، وكان حضرة الناظر مثقفا أو قارئا وبيته مليئا بالكتب، «بيتنا كان منزلا شديد الغرابة بسكانه متعددى الاتجاهات ففى منزلنا شقة يسكنها موسيقار موهوب هو الشيخ حمودة والد المطرب إبراهيم حمودة، وكان فنانا مرحا يقيم فى شقته حفلات غناء وطرب تعج بالموسيقى والغناء والرقص، وفى شقة أخرى أسرة إخوانية شهيرة وهى أسرة القيادى الإخوانى جبر التميمى، وهى ذات الأسرة التى حاول أحد أبنائها إقامة محطة إذاعة إخوانية سرية، وكم كنت أشعر بالدهشة عندما أدخل شقتهم لأجد الإخوة جميعا يتعاملون مع أسلاك متشابكة وأدوات غامضة، فقد كانوا جميعا من هواة اللاسلكى، وكثيرا ما كنت أقف عندهم لأخاطب ماما فتسمعنى عبر الراديو وهى فى شقتنا، وفى شقة ثالثة كان يسكن الصاغ محمود لبيب الأب الروحى للضباط الإخوان فى الجيش المصرى، وفى شقة رابعة أسرة يهودية عائلة كوهين كان أبناؤها ماركسيين أما البنت فكانت عضوًا بنادى المكابى الصهيونى بالظاهر.

وفى شقة خامسة شاب سودانى (توفيق أحمد البكرى) وهو واحد من قادة الحركة الوطنية من السودان ضد الاحتلال البريطانى.. اضطهد وسجن ثم هرب إلى مصر، وكثيرا ما تجمعنا حوله ليحكى لنا عن الوطنية والاستعمار والحرية. وبعد فترة تزوج واحدة من أخواتى، وأمام البيت كانت مدرسة مصر الثانوية، وهى مدرسة خاصة كانت فى الأغلب مملوكة لجماعة الإخوان، ففى كل أسبوع كان حوش المدرسة يمتلئ عصرا بحشود إخوانية ليخطب فيهم الشيخ حسن البنا، وأقف وأخواتى فى البلكونة لنستمع إليه. والحقيقة أنه كان متحدثا لبقا وقادرا على أن يمتلك مشاعر مستمعيه، لكننا لم نتأثر به، فقد تربينا على كراهية التعصب الدينى».

وهكذا عاشت ثريا فى بيت قاهرى أصيل، فهكذا كانت القاهرة، تعرف كيف تتعايش فى سهولة ويسر بغض النظر عن الدين أو الانتماء الفكرى أو السياسى، إنه منزل نموذجى لو كان نجيب محفوظ قد تعرف عليه لأعطى لنا رواية جميلة عنه وعن سكانه، ربما كانت أكثر روعة وخصوبة من ثلاثيته، وتبدأ رحلة اليسار بالأخت فايزة التى التحقت بكلية العلوم جامعة فؤاد الأول (القاهرة)، وفيها عاشت حلم النضال اليسارى مع فتيات ثوريات ويساريات: لطيفة الزيات خطيبة اليسار المفوهة وسعدية عثمان وآسيا النمر. ومن دردشات الجامعة إلى لقاءات «دار الأبحاث العلمية»، وذات يوم ذهبت ثريا مع فايزة إلى شارع نوبار ودخلت إلى دار الأبحاث العلمية، إنها الخطوة الأولى نحو عالم النضال اليسارى الباهر ذلك العالم الذى تفانت ثريا فى الدفاع عنه حتى آخر لحظات الحياة.

وعبر دار الأبحاث العلمية انضمت ابنتا حضرة الناظر محمد سعيد أدهم إلى منظمة «ايسكرا»، وكانت المسئولة عن الخلية التى ضمت فايزة وثريا وسعدية عثمان هى الفنانة إنجى أفلاطون، وفى عام ١٩٤٥ تدخل ثريا كلية الآداب قسم إنجليزى وهناك كان د. لويس عوض وجماعة «الجرامفون» وندوات صاخبة، وهى مع هذا كله، وفى عام ١٩٤٦ تغلى الجامعة وتتكون اللجنة الوطنية للطلبة والعمال، لتحاول أن تغرس بذورا جديدة فى ساحة العمل الوطنى، وفى مواجهة شعارات يرددها طلاب تقليديون مثل «عاشت وحدة وادى النيل» و«نيل واحد - شعب واحد - ملك واحد هو الفاروق»، كانت ثريا تهتف بنغمات وطنية أخرى «الكفاح المسلح طريق الخلاص» «عاش الكفاح المشترك مع الشعب السودانى» وتتوالى مظاهرات صاخبة، وفى ٩ فبراير تحمل الفتيات «ثريا» على الأعناق

لتهتف ضد الاحتلال وضد السراى وضد الملك.. وتكون مذبحة كوبرى عباس. وجلست ثريا مع عشرات من الفتيات على ضفة النيل ليصنعن أعلاما مصرية، وما إن تطفو جثة شهيد حتى يقوم الطلاب بلفها فى أحد الأعلام ليحملوها إلى كلية الطب حيث ينتظر المتظاهرون ليشيعوها فى مظاهرات حاشدة.. وتقول ثريا: «كنت أغلى غضبا، وكانت دموعى ترفض أن تتوقف وأنا أصنع أعلاما لتكون أكفانا لأجمل وأغلى شباب مصر».

وفى اليوم التالى كانت إدارة الجامعة قد خططت لأن تخرج شعلة من الجامعة يحملها رياضيون من طلاب الجامعة، ليجرى بها بعضهم إلى قصر عابدين، احتفالا بعيد جلوس الملك، لكن جراح الأمس صرخت فى دم ثريا ورفاقها فهتفت «يسقط فاروق»، ورددوا خلفها وانتزعوا الشعلة وألقوا بها أرضا.

وكما تلتفت أنظار الطلاب انبهارا بهذه الفتاة.. التفتت أنظار الأمن أيضا.

* * *

«فى أكتوبر ١٩٤٩ كنت محترفة فى منطقة القاهرة وقبض على وقدمت للمحاكمة وكان القاضى مشهورا بالعداء للشيوعيين هو المستشار حسين طنطاوى، وفيما كان القاضى يحاول إرهابى هاجمته بشدة واتهمته بالعمالة للاستعمار والقصر الملكى وأدنت الجميع: القاضى والملك والحكومة.. فحكم على بسنة سجنا وثلاثة أشهر إضافية بتهمة إهانة المحكمة».

ثريا أدهم

ونعود إلى الطالبة ثريا أدهم لنجدها تسهم بحماس فى تأسيس «رابطة فتيات الجامعة والمعاهد العليا» وكانت أول تنظيم نسائى يسارى وتقدمى فى مصر، ومن بين المؤسسات: لطيفة الزيات، عائشة راتب، إنجى أفلاطون، آسيا النمر، سعدية عثمان، فاطمة زكى. واحتشدت مئات الفتيات فى حوش مدرسة الليسيه بميدان التحرير، حاول البوليس منعهن ولم يستطع، وأعلن تأسيس الرابطة، وشكل التنظيم ثلاثة أقسام نسائية: «الطالبات – العاملات – ربات البيوت» وأصبحت عضو لجنة قسم العاملات، وتركز نشاطها الحزبى فى منطقة شبرا الخيمة، وهناك عملت مع قائدات عماليات بارزات: حكمت الغزالى – زينب العسكرى – خيرية أحمد، وتعود ذكرى ٢١ فبراير فى عام ١٩٤٨ ويصدر التنظيم قرارا

بتنظيم مظاهرة نسائية، فقد كانت الضربات البوليسية تتوالى، وإسماعيل صدقى أغلق كل الأندية والمجلات والروابط التقدمية فتقرر اللجوء إلى الفتيات، تجمعن فى ميدان التحرير وسرن باتجاه سليمان باشا وقبض عليهن، وكانت أولى خطى ثريا نحو السجن، قضت ليلة فى قسم عابدين، أحد الضباط قال لها: إنها مجرد حفلة تدشين. وبالفعل قبض عليها مرة أخرى، وتسرع الأم إلى صديق قديم للأب وهو النقراشى باشا، رئيس الوزراء، ويفرج عنها بعد إلحاح شديد، ويتوالى القبض مرة ثالثة ورابعة. فقرر التنظيم أن تترك عملها كمدرسة لغة إنجليزية فى مدرسة القبة الفداوية الثانوية.. وقرر أن تحترف. وقبلت على الفور، إنها أول فتاة تحترف العمل الثورى وتترك منزلها بالطبع. وتختفى وتصبح عضوا بلجنة منطقة القاهرة، وفى أكتوبر ١٩٤٩ يقبض عليها وتقدم للمحاكمة أمام المستشار حسين طنطاوى، ويكون ما روته فى مقدمة هذه الكتابة، ويفرج عنها أواخر ١٩٥٠ ويصدر قرار التنظيم أن تغادر القاهرة إلى الإسكندرية، وهناك عليها أن تبحث عن عمل لتعيش منه هى ومحترفة أخرى (فاطمة زكى) وأن تواصل عملها السرى.

واتخذت ثريا اسم «ليلى فهمى» وتجد عملا كسكرتيرة لصاحب فندق سيسل، وتكتشف ليلى فهمى أنها فى عش الدبابير فبعد فترة من تعيينها (بسبب إجادتها للغة الإنجليزية) بدأت تشعر أن صاحب سيسل أحد قادة جهاز المخابرات الإنجليزية فى مصر. كانت تحضر اجتماعات مثيرة للدهشة يحضرها ممثلون لكل الجمعيات والمؤسسات البريطانية فى الإسكندرية وكان سيل المعلومات يتدفق عن كل شىء وحول كل شىء وكل معلومة تسجل. ولكن اجتماعا واحدا لم يكن مسموحا لها بحضوره.. مرة كل أسبوع أو كل عشرة أيام يجتمع صاحب الفندق ومدير بنك باركليز وهو إنجليزى، وقنصل بريطانيا فى الإسكندرية فى غرفة معزولة ولا يحضر الاجتماع أحد سواهم وتدرك أنه اجتماع قيادة المخابرات البريطانية فى الإسكندرية.

ويتواصل عمل «ليلى فهمى» فى «عش الدبابير»، تعرف معلومات هائلة لكنها لا تعرف إلى من تبلغها، فنشاطها السرى محدود فى إطار مجموعة محدودة من الرفاق، فالمسئولون الكبار فى الإسكندرية قبض عليهم، لكن قرارا تنظيميا مباغتا يصلها بالعودة إلى القاهرة، وتعود مسرعة فتبلغ بقرار غريب أن تنتقل للإقامة مع الرفيقة «أوديت»، وكانت السكرتير العام للتنظيم (م.ش.م) والهدف هو حماية أمن أوديت، فثريا عليها أن تنتقل وتنقل

التعليمات وتتلقى المعلومات وأوديت تتخذ القرارات وهى فى مخبئها. وأحست أن كل شىء ممكن وكل قرار واجب النفاذ إلا أن تقيم مع هذه السيدة الشرسة، اعتذرت عن هذه المهمة وصدر قرار بفصلها، رغم الفصل سلمت للمنظمة كل ما تمتلك من مدخرات وميراث وعادت إلى الإسكندرية لتعمل فى شركة «فورد» لكن المدير «المصرى» كان يضطهد كل العاملين المصريين منحازا للأجانب، صرخت فى وجهه قائلة: «لا يمكن أن تكون مصريا»، وألقت باستقالتها فى وجهه. بعدها اكتشفوا أنه جاسوس وأعدم. وعملت فى شركة كفر الدوار للحرير الصناعى مسئولة عن الترجمة والمكتبة، وكان مكتبها فى غرفة مدير الشئون القانونية، ضابط المباحث المختص كان يلتقى العمال الذين يتجسسون لحسابه فى هذا المكتب، وعرفتهم جميعا وسربت أسماءهم للقيادات العمالية الشريفة. فى ١٩٥٦ عادت للعمل التنظيمى فى إطار تنظيمى جديد (الحزب الشيوعى - المصرى - الراية) وهناك نشطت فى لجان المقاومة الشعبية، ثم تصاعد نشاطها وسط العاملات.. وتدريجيا أصبحت جزءا من نشاط حزبى متصاعد فى الشركة. ويكتشف الأمن حقيقتها ويأتى ملفها من القاهرة. وفى إحدى زياراتها إلى القاهرة لحضور اجتماع حزبى تلتقى حلمى يسن ويتزوجان وينسجان معا رحلة نضالية متواصلة.. وفى ١٩٥٩ يقبض عليه فى يناير وهى يقبض عليها فى مارس. خطاباتها إلى حلمى فى فترة الخطوبة كانت الدليل الوحيد فى القضية. وتقرأ النيابة أمام القضاة العسكريين واحدا من الخطابات: «يا حبى الكبير إن العلاقة التى ربطت بيننا ستكون حافزا لنا لمزيد من النضال من أجل القضية التى آمنا بها وهى تحرير البشرية».. حاكموها من أجل هذه العبارة بالسجن ثلاث سنوات، تعقبها فترة اعتقال، ويفرج عنها فى يوليو ١٩٦٣.. وعندما يأتى منبر اليسار تأتى ثريا وحلمى ليكونا من أوائل المؤسسين. وليواصلا فى صفوفه رحلة نضال أبدى.